الفصل السادس

قضايا حرية الاعتقاد ووحدة الأمة والتخلف

قضايا حرية الاعتقاد
ووحدة الأمة والتخلف

أولاً: هل صحيح أن الإسلام ضد حرية الاعتقاد؟

١ ـ لقد كفل الإسلام للإنسان حرية الاعتقاد، وجاء ذلك فى وضوح تام فى القرآن الكريم: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. فلا يجوز إرغام أحد على ترك دينه واعتناق دين آخر، فحرية الإنسان فى اختيار دينه هى أساس الاعتقاد. ومن هنا كان تأكيد القرآن على ذلك تأكيداً لا يقبل التأويل فى قوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٢ ـ إقرار الحرية الدينية يعنى الاعتراف بالتعددية الدينية، وقد أكد ذلك النبى ﷺ فى أول دستور للمدينة حينما اعترف لليهود بأنهم يشكلون مع المسلمين أمة واحدة.

ومن منطلق الحرية الدينية التى يضمنها الإسلام كان إعطاء الخليفة الثانى عمر بن الخطاب للمسيحيين من سكان القدس الأمان «على حياتهم وكنائسهم وصلبانهم، لا يضار أحد منهم ولا يرغم بسبب دينه».

٣ ـ لقد كفل الإسلام أيضًا حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعى بعيد عن المهاترات أو السخرية من الآخرين، وفى ذلك يقول

القرآن: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وعلى أساس هذه المبادئ السمحة ينبغى أن يكون الحوار بين المسلمين وغير المسلمين، وقد وجه القرآن هذه الدعوة إلى الحوار إلى أهل الكتاب فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. ومعنى هذا أن الحوار إذا لم يصل إلى نتيجة فلكلٍّ دينه الذى يقتنع به. وهذا ما عبّرت عنه أيضًا الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التى ختمت بقوله -تعالى- للمشركين على لسان محمد ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

٤ ـ الاقتناع هو أساس الاعتقاد: فالعقيدة الحقيقية هى التى تقوم على الإقناع واليقين، وليس على مجرد التقليد أو الإرغام. وكل فرد حر فى أن يعتقد ما يشاء وأن يتبنى لنفسه من الأفكار ما يريد، حتى ولو كان ما يعتقده أفكارًا إلحادية، فلا يستطيع أحد أن يمنعه من ذلك طالما أنه يحتفظ بهذه الأفكار لنفسه ولا يؤذى بها أحدًا من الناس. أما إذا حاول نشر هذه الأفكار التى تتناقض مع معتقدات الناس، وتتعارض مع قيمهم التى يدينون لها بالولاء، فإنه بذلك يكون قد اعتدى على النظام العام للدولة بإثارة الفتنة والشكوك فى نفوس الناس، وأى إنسان يعتدى على النظام العام للدولة فى أى أمة من الأمم يتعرض للعقاب، وقد يصل الأمر فى ذلك إلى حد تهمة الخيانة العظمى التى تعاقب عليها معظم الدول بالقتل. فقتل المرتد فى الشريعة الإسلامية ليس لأنه ارتد فقط، ولكن لإثارته الفتنة

والبلبلة وتعكير النظام العام فى الدولة الإسلامية. أما إذا ارتد بينه وبين نفسه دون أن ينشر ذلك بين الناس ويثير الشكوك فى نفوسهم فلا يستطيع أحد أن يتعرض له بسوء، فالله وحده هو المطلع على ما تخفى الصدور.

وقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن عقاب المرتد ليس فى الدنيا وإنما فى الآخرة، وأن ما حدث من قتل للمرتدين فى الإسلام بناء على بعض الأحاديث النبوية فإنه لم يكن بسبب الارتداد وحده، وإنما بسبب محاربة هؤلاء المرتدين للإسلام والمسلمين[1]. وهذه وجهة نظر معقولة وجديرة بالاعتبار.

ثانيًا: هل موقف المسلمين من سلمان رشدى ضد حرية التعبير؟

١ ـ حرية التفكير والتعبير مكفولة فى الإسلام بلا حدود، فالكون كله بسمائه وأرضه وما بينهما مجال لذلك بنص القرآن: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]. وقد عاب القرآن على الذين يعطلون قواهم العقلية والحسية عن أداء وظيفتها، وجعلهم فى مرتبة أحط من مرتبة الحيوانات. والقرآن الكريم يشتمل على عشرات الآيات التى تحض على العلم، وتعلى من شأن العقل، وتجعل من عمارة الأرض تكليفًا إلهيًا للإنسان[2]، ومن

(١) راجع: الحرية الدينية فى الإسلام للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص ٣، ٧٢، ٧٣، ٨٨ ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الثانية (دون تاريخ) وقد نشرت دار المعارف هذا الكتاب فى طبعة جديدة فى السنوات الأخيرة.

(٢) هود: ٦١.

التفكير واجبًا دينيًا[1]. فالبحث العلمى مطلوب، وحرية التعبير مصانة طالما كان ذلك من أجل خير الإنسان. وهذا هو الموقف المبدئى للإسلام فى قضية حرية البحث وحرية التفكير والتعبير.

٢ ـ من المعلوم أن لكل أمة مقدسات تعتز بها، ومعتقدات تسرى فى كيانها، وقيمًا تحرص عليها. وذلك كله له تأثيره القوى فى تكوين شخصية الأمة، وصياغة ثقافتها. والاعتداء على هذه المقدسات بالقول أو بالفعل أو بالسخرية منها يعد اعتداء على ذاتية الأمة، ويعد اعتداء على النظام العام فيها، ومن حق كل أمة أن تحمى مقدساتها، وأن تصون نظامها العام من العبث به بأى شكل من الأشكال. وهذا يوضح لنا موقف المسلمين من سلمان رشدى، فقد شعروا بأنه اعتدى على مقدساتهم التى يعتزون بها، وامتهن حرمة نبيهم، فكان اعتراضهم على ذلك. وهو موقف له ما يبرره.

٣ ـ وهكذا يتضح لنا أن الأمر فى قضية سلمان رشدى لا صلة له بحرية التعبير، بل يدور حول حرية التشهير والإهانة إذا أردنا أن نسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية، وهذا ما لا ترضاه أمة على نفسها. ونحن المسلمين نغضب بنفس القدر إذا وجهت إهانة لموسى أو عيسى -عليهما السلام- أو لأى نبى من أنبياء الله، ولكن هذا لا يعنى الموافقة على قتل سلمان رشدى أو حتى محاكمته؛ لأنه لا يعيش على أرض إسلامية حتى يمكن محاكمته.

٤ - لقد ساعد الإعلام الغربى ولا يزال فى قضية سلمان رشدى على الخلط بين حرية التعبير وحرية التشهير والإهانة، وينبغى التفريق بينهما.

---

(١) يراجع كتاب: التفكير فريضة إسلامية للأستاذ عباس محمود العقاد.

فاختيار سلمان رشدى لدائرة المقدسات الإسلامية بالذات للتشهير بها يعد إفلاسًا فكريًا وأدبيًا من جانبه، ويعد من ناحية أخرى محاولة متعمدة للسخرية من المقدسات الإسلامية. فالأديب المبدع أمامه أفق فسيح للإبداع، أما الأديب المفلس فإنه يختار موضوعًا من الموضوعات الشائكة، وبخاصة إذا كانت تتصل بمعتقدات الناس ليدخل من خلالها إلى دائرة الشهرة، وقد تم لسلمان رشدى بذلك ما أراد.

وقد كان الأولى بالمسلمين أن يتجاهلوه تمامًا. فلم يكن هو أول من هاجم المقدسات الإسلامية ولن يكون آخرهم، ولن يكون لكتاباته ولا لكتابات غيره أى تأثير على هذا الدين الذى صمد طوال أربعة عشر قرنًا من الزمان ولا يزال ضد كل التيارات التى أرادت النيل منه.

ثالثًا: هل صحيح أن الحدود فى الإسلام تتسم بالقسوة والوحشية؟

١ ـ الإسلام ليس دينًا يرغب فى القسوة ويشتهى العنف، بل العكس هو الصحيح، وهو أنه دين يدعو إلى الرحمة والتراحم والسماحة، ولكنه فى الوقت نفسه يحرص على استتباب الأمن وإقرار السلم فى المجتمع ضمانًا لحرية الأفراد، وصونًا لحقوقهم فى أمن وأمان، وحماية لأنفسهم وعقائدهم وعقولهم وأموالهم وأسرهم. والإسلام حين يضع عقوبة لخطيئة ما يضع فى اعتباره عنصرين أساسيين:

أ ـ الإنسان ليس معصومًا من الخطأ، بل هو معرض له فى أى وقت، ومن هنا فتح الإسلام باب التوبة أمام المخطئين الذين يندمون على ما فعلوا ويريدون أن يطهروا نفوسهم.

ب ـ كل فرد فى المجتمع يهمه أن يعيش حياته آمنًا مطمئنًا على نفسه وأسرته وممتلكاته. ولا يجوز أن تتحول انحرافات بعض الأفراد إلى ظاهرة هدامة تعصف بأمن المجتمع وتروع الآمنين.

٢ ـ وإذا كان الإسلام قد وضع الحدود لمعاقبة المجرمين فإنه دعا إلى درئها بالشبهات، وإلى وقفها بالتوبة إذا رأى القاضى أن من تورط فيها قد ندم على فعله وأنه تاب توبة نصوحًا. وفى ذلك يقول النبى ﷺ: «**ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجًا فخلوا عن سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة**»[1]. وهذا الحديث يدل على منتهى التسامح.

٣ ـ إن عقوبة الزنا من الأمور التى يصعب تنفيذها نظرًا لأن الإسلام قد اشترط لثبوت جريمة الزنا أن يشهد على ذلك أربعة شهود يقررون أنهم رأوا وقوعها على نحو صريح لا شبهة فيه، وهذا أمر يكاد أن يكون فى عداد المستحيلات. ومن هنا فإن حادثتى الرجم اللتين وقعتا فى تاريخ الإسلام كانتا بناء على اعتراف، وليس بشهادة الشهود. وقد حاول النبى ﷺ مرارًا وعلى فترات مختلفة أن يثنى كلاً من الجانيين عن هذا الاعتراف، ولكنهما أصرا على ذلك إصرارًا لم يجد معه النبى مفرًا من تنفيذ العقوبة التى لم تتكرر فى التاريخ الإسلامى لصعوبة إثبات الجريمة، ومن الواضح أن النبى أمر بتنفيذ العقوبة وهو كاره لهذا التنفيذ.

---

(١) رواه الترمذى والحاكم فى مستدركه وغيرهما. (راجع: فيض القدير للمناوى ج١ ص ٢٢٦ وما بعدها - بيروت ١٩٧٢م).

٤ ـ الإسلام لا يقطع يد سارق جائع سرق من أجل إطعام نفسه وإطعام أولاده، ولكنه يعاقب السارق المتبجح الذى يسرق لا لحاجته ولكن لسرقة كسب الآخرين وكدحهم، وإشاعة الفساد فى المجتمع. ومثل هذا الجانى لا يستحق شفقة من أحد؛ لأنه هو نفسه لم يشفق أو يرحم من سرق منه، وقد يكون المسروق منه فى أشد الحاجة إلى المال الذى سرق منه، فمن حق المجتمع أن يدافع عن حقوقه. وفضلاً عن ذلك فإن تطبيق هذه العقوبة فى المجتمع الإسلامى ـ حينما كانت مطبقة ـ كانت نتيجته ندرة حدوث السرقة فى المجتمع لدرجة أن التاجر كان يترك بضاعته بلا حراسة، وكانت أبواب المنازل تترك دون إحكام إغلاقها، وعلى الرغم من ذلك لم تكن تحدث السرقات، وهذا على خلاف ما هو حادث فى شتى المجتمعات التى تكتفى بعقوبة مخففة، إذ يشجع ذلك على انتشار السرقات وتكرارها بدرجة أصبحت تشكل فى بعض المجتمعات ظاهرة خطيرة[١].

٥ ـ شرط تطبيق عقوبة السرقة هو توفير العدل الاجتماعى، والقضاء على شبح الفقر فى المجتمع، الأمر الذى لا يشعر فيه مواطن بدافع يدفعه إلى السرقة، ومن هنا أوقف الخليفة عمر بن الخطاب تنفيذ حد السرقة عام المجاعة التى شهدتها بلاد المسلمين حينذاك. وعندما كانت الحدود مطبقة على نحو عادل فى الإسلام فى عهده الأول كان السائر من مكة إلى الشام لا يخاف فى طريقه إلا الله والذئب على غنمه. فكل سارق كان يعلم سلفًا ما هى العقوبة، ومن أجل ذلك كان يفكر ألف مرة قبل ارتكاب جريمة السرقة

(١) راجع: مائة سؤال عن الإسلام للشيخ محمد الغزالى ج٢ ص ٤١ وما بعدها.

أو غيرها من الجرائم. ومن هنا كانت ندرة تطبيق الحدود. فأيهما أفضل؟ استتباب للأمن فى المجتمع، وإن أدى ذلك إلى تطبيق العقوبة على بضعة أفراد أو امتلاء السجون بالمجرمين وتعكير صفو الأمن فى المجتمع؟

من الذى يستحق التعاطف معه: المجرم أم المجتمع وأمنه واستقراره؟

رابعًا: ما أسباب تفرق المسلمين رغم دعوة الإسلام للوحدة؟

١ ـ لا ينكر أحد أن الشعوب الإسلامية فى عصرنا الحاضر متفرقة ومتنازعة فيما بينها، فهذا واقع ملموس لا يحتاج إلى برهان. ولكن هذا يعد مرحلة فى تاريخ المسلمين شأنهم فى ذلك شأن بقية الشعوب والأمم الأخرى، ولا يعنى ذلك أنهم سيظلون كذلك إلى الأبد. وكما استطاعت الشعوب الأوروبية أن تتغلب على عوامل الفرقة والتنازع فيما بينها ـ والتى أدت إلى حربين عالميتين شهدهما القرن العشرون ـ فإن الشعوب الإسلامية سوف تستطيع فى مستقبل الأيام أن تتغلب أيضًا على عوامل الفرقة فيما بينها، والبحث عن صيغة ملائمة للتعاون المثمر من أجل مصلحة المجتمعات الإسلامية كلها.

وهناك محاولات مستمرة فى هذا الصدد وإن كانت بطيئة وذات تأثير محدود ومتواضع مثل منظمة المؤتمر الإسلامى التى تضم كل الدول الإسلامية، إلا أنه يمكن تطوير العمل فى هذه المنظمة وغيرها من منظمات إسلامية أخرى للوصول بها إلى مرحلة متقدمة من التعاون الأوثق. وللأمة الإسلامية فى تعاليم الإسلام فى الوحدة والتعاون والتآلف والتكافل أعظم سند يضمن لها نجاح هذه المحاولات فى مستقبل الأيام.

٢ ـ فالإسلام فى مصادره الأصلية يدعو إلى الوحدة والتضامن ويحذر من الفرقة والتنازع ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، [الأنفال: ٤٦]، ويدعو إلى الشعور بآلام الآخرين والمشاركة فى تخفيفها، ويجعل الأمة كلها مثل الجسد الواحد ـ كما يقول النبى ﷺ ـ «**إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**»(١). ويعتبر الإسلام رابطة العقيدة بمنزلة رابطة الأخوة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وحينما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، فأصبحوا إخوة متحابين متضامنين فى البأساء والضراء. وآيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ فى ذلك أكثر من أن تحصى.

٣ ـ هناك أسباب خارجية كثيرة أدت إلى الانقسام والفرقة بين المسلمين فى العصر الحديث، وترجع هذه الأسباب فى قدر كبير منها إلى الفترة التى هيمن فيها الاستعمار على بلاد العالم الإسلامى. وعندما رحل ترك مشكلات عديدة كان هو سببًا فيها مثل مشكلات الحدود، وكانت القاعدة التى على أساسها خطط لسياساته هى مبدأ: «فَرِّق تَسُد». ومن هنا عمل على إحياء العصبيات العرقية بين شعوب البلاد المستعمَرة. وقام بنهب خيرات هذه البلاد، وأدى ذلك إلى إفقارها وتخلفها الحضارى الذى لا تزال آثاره باقية حتى اليوم، ولا تزال معظم شعوب العالم الإسلامى تعانى من المشكلات التى خلفها الاستعمار.

---

(١) رواه الإمام مسلم وغيره (راجع: فيض القدير ج٥ ص ٥١٤ وما بعدها).

٤ - انشغل المسلمون بالمشكلات الكثيرة التى خلفها الاستعمار، وغفلوا عن تعاليم الإسلام فى الوحدة والتضامن.

ولكن الشعوب الإسلامية لا تزال تحن إلى وحدة جهودها، وتضامنها فيما بينها، وتجميع قواها فى سبيل الخير لهذه الشعوب جميعها. ولا يزال المسلم فى أى بلد إسلامى يشعر بآلام المسلمين فى مناطق العالم المختلفة بوصفه جزءًا من الأمة الإسلامية، وهذا من شأنه أن يعمل على توفير أساس راسخ لمحاولات إعادة التضامن والوحدة بين أقطار العالم الإسلامى، بمعنى توحيد الجهود والتكامل فيما بينها فى ميادين الثقافة والاقتصاد والسياسة والأمن، وتبادل الخبرات والمنافع، وكل ما يعود على المسلمين بالخير، مما يجعلهم أقدر على القيام بدور فعّال فى ترسيخ قواعد السلام والأمن فى العالم كله.

خامسًا: هل الإسلام مسئول عن تخلف المسلمين؟

١- حقائق التاريخ تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام قد استطاع بعد فترة زمنية قصيرة من ظهوره أن يقيم حضارة رائعة كانت من أطول الحضارات عمرًا فى التاريخ، ولا تزال الشواهد على ذلك ماثلة للعيان فيما خلفه المسلمون من علم غزير فى شتى مجالات العلوم والفنون، وتضم مكتبات العالم آلافًا مؤلفة من المخطوطات العربية الإسلامية تبرهن على مدى ما وصل إليه المسلمون من حضارة عريقة، يضاف إلى ذلك الآثار الإسلامية المنتشرة فى كل العالم الإسلامى والتى تشهد على عظمة ما وصلت إليه الفنون الإسلامية.

وحضارة المسلمين فى الأندلس وما تبقى من معالمها حتى يومنا هذا شاهد على ذلك فى أوروبا نفسها. وقد قامت أوروبا بحركة ترجمة نشطة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لعلوم المسلمين. وكان ذلك هو الأساس الذى بنت عليه أوروبا حضارتها الحديثة.

٢ ـ يشتمل القرآن الكريم على تقدير كبير للعلم والعلماء وحث على النظر فى الكون ودراسته وعمارة الأرض. والآيات الخمس الأولى التى نزلت من الوحى الإلهى تنبه إلى أهمية العلم والقراءة والتأمل[١]، وهذا أمر كانت له دلالة هامة انتبه إليها المسلمون منذ البداية. وهكذا فإن انفتاح الإسلام على التطور الحضارى بمفهومه الشامل للناحيتين المادية والمعنوية لا يحتاج إلى دليل.

٣ ـ أما تخلف المسلمين اليوم فإن الإسلام لا يتحمل وزره؛ لأن الإسلام ضد كل أشكال التخلف. وعندما تخلف المسلمون عن إدراك المعانى الحقيقية للإسلام تخلفوا فى ميدان الحياة. ويعبر مالك بن نبى ـ المفكر الجزائرى الراحل ـ عن ذلك تعبيراً صادقًا حين يقول: «إن التخلف الذى يعانى منه المسلمون اليوم ليس سببه الإسلام، وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به، كما يظن بعض الجاهلين». فليس هناك صلة بين الإسلام وتخلف المسلمين.

٤ ـ لا يزال الإسلام وسيظل منفتحًا على كل تطور حضارى يشتمل على خير الإنسان، وعندما يفتش المسلمون عن الأسباب الحقيقية لتخلفهم

---

(١) العلق: ١ - ٥.

فلن يجدوا الإسلام من بين هذه الأسباب، فهناك أسباب خارجية ترجع فى جانب كبير منها إلى مخلفات عهود الاستعمار التى أعاقت البلاد الإسلامية عن الحركة الإيجابية، وهذا بدوره - بالإضافة إلى بعض الأسباب الداخلية - أدى أيضًا إلى نسيان المسلمين للعناصر الإيجابية والقيم الدافعة لحركة الحياة فى الإسلام.

٥ ـ لا يجوز الخلط بين الإسلام والواقع المتدنى للعالم الإسلامى المعاصر. فالتخلف الذى يعانى منه المسلمون اليوم يعد مرحلة فى تاريخهم، ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال أنهم سيظلون كذلك إلى نهاية التاريخ. ولا يجوز اتهام الإسلام بأنه وراء هذا التخلف، كما لا يجوز اتهام المسيحية بأنها وراء تخلف دول أمريكا اللاتينية.

إن الأمانة العلمية تقتضى أن يكون الحكم على موقف الإسلام من الحضارة مبنيًا على دراسة موضوعية منصفة لأصول الإسلام، وليس على أساس إشاعات واتهامات وأحكام مسبقة لا صلة لها بالحقيقة.

***